ختام الموسم

نـــــدوة

دور التراث العلمي في نهضتنا الحديثة

أدارها

رئيس المجمع الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة

وشارك فيها

الدكتور عبدالمجيد نصير

والأستاذ الدكتور عادل جرار

(السبت ٢١ شعبان ١٤٠٥هـ- ١١ أيار ١٩٨٥م)

دروس عصرية من تراثنا العربي
للدكتور عبدالمجيد نصير

دروس عصرية من تراثنا العربي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين. اللهم، لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، وبعد.

في هذا العصر الذي يسيطر التقدم العلمي التقني المادي على مساره، ويحدد صفاته، والذي بلغ الإنسان فيه شأواً في المنجزات المادية لم يخطر على البال؛ في هذا العصر، الذي تتميز فيه البشرية بالانقسامات البشرية والحضارية الإنسانية، والذي يعلن فلاسفته أنه عصر خواء من الغاية والأهداف، يدفع بنيه إلى حافة اليأس، ويرديهم في هاويات الانتحار والقلق والتمزق... في هذا العصر، الذي يسعى فيه الكثير من أبناء جلدتنا إلى تقليد هذه الحضارات المتقدمة، متخذين منها مثالاً أعلى، وداعين إلى أخذ ما فيها بغثّة وسمينه؛ وفي هذا العصر الذي ينضغط فيه أهل الإسلام بين مطرقة الأصالة وسندان المعاصرة، حتى صرنا أُمة دون هوية مميزة، وجمعاً كبيراً يبحث عن معنى لوجوده ... بكل ما في هذا العصر من تحديات، يحسن بنا أن نعود إلى تراثنا العلمي، نستلهم من عطائه الروحي ما لا نجده عند أهل هذا العصر. ففي تراثنا دروس وعبر، وفيه اتجاه وتميز؛ أمور تتحدى مرّ الأيام، وتثبت على انقضاء القرون والأعصار.

وفي السطور التالية، أقدم ملامح روح تراثنا العلمي. علّنا نستلهم منها ما يعيننا على أن نجد طريقنا إلى غايتنا. فالجهد الذي لا غاية له جهد ضائع، والأمة التي لا أهداف لها تتجاوز عصرها، وجيلاً واحداً أو جيلين، هي أمة توشك أن تبيد. ولا أدّعي أني أحطت بكل هذه الدروس، إلاّ أنني حاولت جهدي، والله الموفق.

(١) **القصد هو رضى الله عز وجل –** يفهم المسلم من وجوده في الكون أنه لعبادة الله سبحانه وتعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون". لذلك، فإن أعماله ونشاطاته يجب أن تكون موجهة للعبادة. وهو بذلك يبتغي رضى الله عز وجل. وبالنسبة إلى العلم. فإن طلبه فريضة. فإذا قرأ المسلم، فإن ذلك استجابة للأمر الإلهي:"اقرأ باسم ربك الذي خلق"، وإذا تدبر وتأمل، فهو طاعة وامتثال: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، لآيات لأولى الألباب". وحفظ العلم وتعليمه، واجب على المسلم، وهو طريقه إلى خلود الذكر في الدنيا: "إذا مات ابن آدم انقطع علمه إلا من ثلاث:.... أو علم ينتفع به".

(٢) **الغائية في الخلق**– يرفض الإسلام العبث في الكون. يقول سبحانه وتعالى:"افحسبتم إنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون؟". "ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك". والأسباب والعلل موجودة، والكون يجري ضمن سنن الله التي لا تتبدل "سنة الله، ولن تجد لسنته تبديلا". والإنسان مدعوّ إلى اكتشاف هذه السنن، وتسخيرها لمصلحته "وسخّر لكم ما في السموات والأرض". أما المقولة كما في نصرانية

القـرون الوسـطى، إن الطبيعيـة شـيطانية سـاقطة، فهـي مرفوضـة فالطبيعة صديق للإنسان مسخرة له.

(٣) **الأدلـة والبـراهين**– يـأبى الإسـلام علـى الإنسـان قبـول أي شـيء دون قناعة تستند إلى أدلة وبراهين. "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". وتقديس الآباء أو أفكارهم لمجّرد انهم كذلك أمر مستنكر. "بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون". ولقد شغف صانعو تراثنا بإساليب البرهان، كل حسب الفن الذي أقيم من أجله.

(أ) فقـد شـغف المسـلمون ببنيـة إقليـدس المنطقيـة الرياضـية، واستعملوها في الرياضيات وغيرها.

(ب) كما شغف المسلمون بمنطق أرسطو، واستفاد منه أهل الكلام والمحاجّة.

(ج) وبني النحو العربي على أسس منطقية فلسفية.

(د) ووضع علماء الحديث قواعد الجرح والتعديل، كميزان لقبول ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(هـ) حتى المدارس الفقهية، اعتمدت الأدلة والبراهين في تخريجاتها وترجيحاتها.

(و) وفي العلوم التطبيقية، ظهرت التجربة كأقوى الأدلّة، بل كدليل لا بد منه، واستعمل لأول مرة في العالم على نطاق واسع. ولا عجب أن يكون المسلمون هم واضعي المنهج العلمي التجريبي. وبما أن الآلات امتداد للحواس، فإن المسلمين اخترعوا آلات

عديدة في المعارف التطبيقية المختلفة، لتساعدهم على استنباط النتائج والتوصل إلى الحقائق.

(ز) وكون آلات إدراك العلم: من استدلال، وفكرة، وبحث، وتمييز، وقياس، واجتهاد، وأجهزة، قابلة للتطور، يعني أن المعارف الناتجة عنها قابلة للتطور أيضاً. ولذلك نجد في الإنتاج العلمي الإسلامي غزارة وتحسيناً دائباً. ورفض المسلمون المقولة "ما ترك الأول للآخر شيئاً".

(٤) **الاستيعاب والإنتاج**- بدأت الحضارة العلمية الإسلامية من بدايات بسيطة. لكنها سرعان ما استوعبت انتاج الأقدمين: من يونان، وسريان، وفرس، وهنود. ورافق ذلك إنتاج بدأ يتميّز بعد الاستيعاب، حتى يكاد يكون ما قدمه في المعارف العلمية: كالصيدلة، والجبر، والحساب، والمثلثات، والطب، إنتاجاً خاصاً به، فيه طابع مميز، وإضافات قيمة للمعرفة، ووسائل حديثة مبتكرة. وفي هذا درس لحالنا اليوم، التي لا تزال في مرحلة استيعاب لا ينتهي، وما يزال انتاجنا قليلاً غير مميز.

(٥) **دور المؤسسات الرسمية**- كانت المعارف في مصر القديمة تكاد تكون حكراً على الكهنة ومن هم في طبقتهم. ولا نعرف الكثير عن علماء ما بين النهرين. وقد كوّن علماء اليونان الأقدمون ارستقراطية لأنفسهم. أما في الإسلام، فلأول مرة في التاريخ تجد العلم مشاعاً، وفرصاً متكافئة إلى حد كبير بين جميع المواطنين، على اختلاف أصولهم أو أديانهم. وقيمة كل امرئ ما يحسن. وكان دور الدولة إيجابياً وبنّاء، فهي ترعى العلماء، وتنشيء دور الحكمة والمكتبات،

وتشجيع الترجمة، وتنفق على العلم بسخاء. وامتدت عدوى ذلك إلى أصحاب المال.

(٦) **اخلاقية العلم**– في هذا العصر الذي غلب عليه التقدم العلمي التقني من أجل التقدم نفسه، ومنافسة بين أهل العلم مهما كانت نتائجه، وكائناً من كان استعمله، يحسن بنا أن نستفيد من الدرس العلمي الإسلامي، في أن العلم له أخلاقيات تضبطه، حتى لا يصير انفلاتاً لا ضوابط له.

(أ) ينضبط العلم أولاً بالعقيدة والإيمان، ويخضع لهما. ويقع النشاط البشري العلمي ضمن إطار العادة، وتسري عليه أدبياتها، وللعلماء مكانة خاصة، وقربى في الطاعة الإلهية "إنما يخشى الله من عبادة العلماء" فاطر ٢٨.

(ب) الاكتشاف العلمي لا حدّ له. يقول سبحانه وتعالى:"وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". الإسراء ٨٥. فهذه الآية حافزة للتقدم العلمي المتواصل. والدعاء البشري هو: "وقل رب زدني علما". طه ١١٤.

(ج) والحقيقة العلمية واحدة، فلا تعارض فيما بين النقل والثابت من استنتاج العقل. والحقيقة ضابط إيجابي للنتائج، وهي موجودة، لأنها سنة الله "ولن تجد لسنة الله تبديلا" فاطر ٤٣.

(د) والمعارف الإنسانية والمعارف العلمية توأمان لا يجوز عزلهما، ومعالجة كل منهما بإطار مختلف. بل كلاهما يعالج ضمن الأطار الإسلامي الواحد. ولم يضع الإسلام المعارف الإنسانية، كما وضعتها النهضة الأوروبية والحضارة الغربية الحديثة، في زاوية

الفنون، وعلى أنها أمور شخصية لا علاقة لها بالحقيقة. فمنذ البداية، مثلاً، خضع الفقه والتشريع إلى طرق الاستدلال العلمي، وظلت المعطيات الخلقية في الإسلام حقائق عامة تصلح للإنسان مهما تغيّر الزمان أو المكان. لأنها سلوك قيمي ثابت، يتحاكم إليه الأجيال. وهذا على خلاف النظرة الغربية التي تدعي أن الأخلاق، مثلاً، أحساس وشعور نسبي في الزمان أو المكان أو القوم.

(هـ) العلم إنتاج بشري لمنفعة البشرية، وإصلاح الأرض، وليس للدمار أو الفساد "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها". الأعراف ٥٦.

(٧) **اخلاقيات العالم**– العالم في المجتمع المسلم عضو فعال نافع؛ مسؤوليته أولاً هي أمام الله عز وجل، منضبط بالإيمان، ملتزم بأن الإسلام رحمة للعالمين:

(أ) فهو أولاً إنسان متواضع، لا يهمه الجاه أو الصيت.

(ب) وهو إنسان مواطن منتمٍ إلى أمته الإسلامية ولا يرضى عنها بديلاً. واغراءات الدنيا، من مال أو جاه، لا تدفعه إلى أن يخرج على أمته، وهجرة العقول (كما في مصطلح اليوم)، لا وجود لها في الإسلام.

(ج) والعالم إنسان مسؤول، يحسّ بمسؤوليته الناتجة عن تميزه "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟" الزمر ٩. ولذلك فهو إنسان واسع الثقافة، إضافة إلى تخصصه الدقيق. أساس علومه هو معرفته بدينه، امتثالاً لتعليمات الرسول الله صلى الله عليه وسلم :"من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين".

(٨) **التطبيق العلمي العملي**- مع أن كثيراً من المعارف التي شغل بها المسلمون لم يكن ذا فائدة علمية مباشرة، إلا أن العالم المسلم كان يرى متعة علمه في تطبيقه فيما ينفع المسلمين فتحديد القبلة مثلاً، أدى إلى نبوغ في الفلك والمثلثات؛ وعلم المواريث احتاج إلى تطوير الحساب والجبر، والاهتمام بالجسد – لأن الجسد السليم أقدر على العبادة والنفع – أدى إلى تطوير العلوم الطبية؛ والاهتمام بأوقات الصلاة، أدى إلى تطور الساعات تطوراً ملحوظاً؛ وبناء المساجد والمدارس أدى إلى تطور العلوم الهندسية؛ والجهاد في سبيل الله "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" –الأنفال ٦٠- أدى إلى تطوير المعدات الحربية.

(٩) **استقلالية الأمة وكفايتها**- نظر المسلمون إلى العلوم على أنها من العبادة والتكاليف. لذلك فهي أما أن تكون فرض عين أو فرض كفاية ونصّ الفقهاء، بوضوح على أن أي معرفة مفيدة للمسلمين، معرفتها فرض كفاية، وعلى المسلمين أن يكون بينهم من يتقنه. وهذا يؤدي إلى استقلالية الأمة المسلمة، واعتمادها على نفسها. وفي هذا درس عظيم لأمتنا اليوم، وهي على ما هي عليه من حال تبعية وهوان.

(١٠) **حفز الهمم**- ولتراثنا دور متميز في حفزهم الأجيال، بدفعهم ليتبأوا مكاناً لائقاً لأمتهم بين الأمم. فالأمة التي أنتجت وتميزت قديماً تستطيع أن تنتج وتتميز حديثاً، بأذن الله. في أمة مبتلاة بالمثبطات والمعوقات وقتل الهمم، يكاد يكون التراث السليم الوحيد؛ فتدريس سير عظماء هذا التاريخ العلمي، وصانعي أمجاده، سيشحذ

طاقات الشباب ليفجرها. وتبيان قيمة تراث الأجداد في الحضارة الإنسانية، يرفع المعنويات، ومن يدري فقد يخرج من هذه الأجيال من يبدع ويتفوق، حتى يحرزا على الألقاب العالمية، والجوائز البشرية! وهذا بحدّ ذاته سيكون حافزاً آخر، وهكذا.... وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

(١١) **بعث قيمة العلم والأخلاص في طلبة**- نعيش في عصر، صار العلم فيه مطية للحصول على شهادة؛ والشهادة سلم تؤدي إلى المال والجاه، حتى لو كانت بعض درجات هذا السلم نفاقاً وخداعاً وتنافساً غير شريف. ولقد ساهمت الألقاب الجامعية والرتب الأستاذية، في إيجاد طبقية بين أصحاب الشهادات والدرجات في العطاء. وما أحوجنا، إلى أن ننهج نهج العلماء الأفذاذ من السلف الصالح، عندما كان يطلب العلم للتعلم، والتقرب من الله عز وجل، والتعليم هو الشكر العملي على ما آتاهم الله، كما يقول ابن الهيثم في أحد مقاصده من وضع مؤلفاته: "إفادة من يطلب الحق ويؤثره في حياتي وبعد مماتي". وابن الهيثم مثل طيّب لهؤلاء الأفذاذ، إذ رفض المناصب ومال السلطان، وقنع برزق قليل يأتيه من نسخ بعض الكتب وبيعها... متفرغاً للإنتاج والإبداع. ورحم الله القاضي الجرجاني إذ يقول:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعظّما

(١٢) **التعريب**- نقل المسلمون معارف من سبقهم من لغات شتى إلى اللسان العربي، وكانوا سراعاً في تطويع اللغة العربية لتصير لغة علم: مفردات ومصطلحات وتراكيب. وقد نقلوا المعارف دون أن نقرأ

ضجة حول التعريب وأهميته أو صلاحية لغتنا بالنسبة إليه. كما تم هذا النقل، ثم الكتابة من دون وجود مجامع لغوية، أو مكاتب تنسيق، أو منظمات ثقافية، أو لجان فنية، أو معاجم متخصصة، أو خبراء متجولين في مؤتمرات التعريب!

(١٣) **التميز الإيجابي للحضارة الإسلامية**- إن الملامح التي ذكرت آنفاً، والتي تميزت به حضارتنا الإسلامية فيما سبق من تاريخ بشري، جعلت هذه الحضارة إنتاجاً إنسانياً رائعاً، ومختلفاً عما سبقها وما جاء بعدها. هذا التميز نابع من العقيدة الإسلامية – الإطار الذي حكم الإنتاج البشري المسلم، وربط الفعاليات الإنسانية في المجتمع الإسلامي.

ولا ريب أنه من الخطأ الفادح أن يقاس تقدم حضارة ما بمقياس الكم المادي من كثرة اختراعات، أو وفرة اكتشافات، أو نوع المعدات والاليات والتجهيزات؛ وإلا وقعنا في خلل لا يمكن إصلاحه. ففي عصرنا هذا وصلت الحضارة المادة (غربية أو شرقية)، إلى أن تضع إنساناً على القمر. لكنها هي الحضارة، التي قتلت بالغازات السامة ملايين البشر، وجردت الغابات من إشجارها، ولوّثت الماء والهواء. وهي الحضارة التي تربط قيمة الإنسان بلون بشرته أو عينيه، أو تفضل مذهبا فكرياً على آخر. وهي الحضارة التي جاءت لنا باستعلاء أنواع البشر، لأن لهم أصلاً بشرياً معيناً. وهي الحضارة التي تقتلع الناس من أرضهم وترميهم في مهالك التاريخ، فارضة أفكاراً بقوة السلاح مهما كانت التضحيات والمقاومة!

والعرب بخاصة، والمسلمون بعامة، وهم يحاولون أن ينحتوا لأنفسهم موطىء قدم في التاريخ المعاصر، يجب أن لا يتطلعوا إلى مضاهاة الحضارة المادية

في كثرة المخترعات والمكتشفات؛ فقد يكون ذلك مستحيلاً، لكنهم يستطيعون أن يتفوقوا حيث فشل الغرب والشرق، إذا قدموا للبشرية المتعبة حضارة إنسانية، تهتم بهذا الإنسان على أنه مخلوق مكرم، فضّله خالقه على كثير ممن خلق، همها أن ترفع شأن الإنسان وتسعده وتعيده إلى فطرته السليمة، وإلى موقعه الطبيعي لتكون حضارته حضارة خير، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتستعمر الكون خلافة بشرية في سنّة إلهية. وبهذا تصير الحضارة الإسلامية نبراساً يضيء البشرية، ومثلاً يحتذى، ومحطة استراحة على وجه الأرض. وتكون الأمة المسلمة متميزة في عطائها.

وتلفّتَّ فلم تنظر سوى أمة تهدي ودينا تهتدي

والله الموفق، وإياه أريد، وأسأله القبول. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتور عبدالمجيد نصير

من وحي

التراث العلمي العربي

للأستاذ الدكتور عادل جرار

"من وحي التراث العلمي"

إن في ما استمعنا إليه على مدى الأسابيع الأربعة الماضية وفي ما قرأنا سابقاً عن تراث العربي العلمي أكثر من موضع للشعور بالاعتزاز والافتخار بماض هذه الأمة في مجال العلم. ولسنا هنا في مجال إبراز أهمية التراث العلمي العربي في سجل الحضارة الإنسانية، وإنما نود البحث عن عبر ودروس تقود مسيرتنا العلمية في العصر الحاضر. والعلم كأي نشاط إنساني آخر لم يعد في هذا العصر نشاطاً فردياً، ولا نشاطاً يقتصر الاهتمام به على أفراد وجماعات محدودة العدد، وإنما صارت توضع له الخطط وتدرس البرامج، ويقاس كمياً ونوعياً عند تقييم الخطط وما أنجز منها.

والعلم الحديث ظاهرة بنت عصرها، يمكن أن نرجع بجذورها إلى العهود القريبة منذ مائتي عام أو نحو ذلك، حين انطلقت التكنولوجيا الصناعية المعتمدة على الآلة، والتي تفردت بخطو حثيث متسارع لم تتمتع به عهود الإنسان السابقة التي كانت تعتمد على التكنولوجيا الزراعية والحرفية. ولا يعني هذا أن العلم الحديث مقطوع الصلة بالمعرفة العلمية السابقة، فالفكر العلمي متواصل الحلقات منذ بدأ تاريخ الإنسان المكتوب، ولكنه كان في العهود السالفة وئيد الخطى محدود الانتشار. وربما أرجعنا ذلك التسارع في العلم الحديث بصورة كبيرة إلى نوع التكنولوجيا السائدة، فهي قد أفادت من هذا العلم، وأغنته كذلك بالوسائل التي تعمق البحث وتطور أسلوبه، وتمدّ بصر الباحث وسمعه وإدراكَه إلى مجالات لم يكن يحلم بها في العهود السالفة. ويؤيد هذا الرأي أن العلوم التجريبية في السابق، لم تشهد مثل الازدهار الذي حصل في علوم الرياضيات مثلاً، وكان عليها أن تنتظر العصر الحديث ليمدها بأدوات القياس. فلا يتصور مثلاً أن تكتشف العلاقات الكمية في الاتحاد الكيميائي دون

اكتشاف الميزان الدقيق، كما كان لا بد من اكتشاف المُجِهر قبل نمو علم الخلية. وحين تمكن الإنسان من رصد الشمس من سفينة فضائية تدور خارج جو الأرض الذي يؤثر في خواص الإشعاع، فقد حمل على السفينة أنواعاً من المطيافات، وفي خلال رحلات ثلاث في السبعينات تمكن من أن يعرف الشمس أكثر مما عرفت البشرية خلال كل تاريخها الطويل، والأمثلة على صدق ذلك كثيرة.

فإذا كان الحال كذلك فكيف نستلهم الانجازات العلمية العربية لنصل إلى ما نتخذه عدة لنهضة علمية عربية معاصرة، وهل في التراث العلمي العربي مرتكز لنا في محاولاتنا للإنضمام إلى ركب العلم الحديث؟

أول ما يجب أن يقال هو أن أي نهضة علمية عربية حديثة يجب أن تنهل من نهر العلم الحديث على أوسع نطاق، وأن تتخذ من أساليبه كل ما ثبت على الأيام صلاحُهُ وفائدتُهُ أي شجرة تغرس لا بد لها من تربة صالحة حتى تؤتي ثمراً زكياً. وهذه التربة الصالحة تتمثل في وصل شجرة العلم الحديث بالتراث. فماذا نلتمس في ذلك التراث مما يعد لنا تلك التربة الصالحة، وما هي العناصر التي سنبثها فيها لتغذي شجرة العلم كي تنمو وتثمر؟.

أهم ما في التراث العلمي العربي تلك الظاهرة التي يمكن أن ندعوها الروح الوثابة للبحث والمعرفة، وهي الظاهرة التي برزت لدى أهل العلم وأهل الحكم في جميع عصور ازدهار العلم العربي الإسلامي. لذلك فإن من همي هنا أن أبرز هذه الظاهرة كدستور يهدينا في خطونا نحو العلم الحديث.

فقد رأينا العلماء يتبعون الجيوش المنتصرة التي كانت تنقل النور الهادي إلى بقاع الأرض المفتوحة، ومن أول ما عملوا أنهم سعوا إلى ترجمة ما عثروا عليه من كنوز العلم، ثم أخذوا يقرأون ويتمثلون ما اطلعوا عليه من فكر، فاخرجوا

فكراً وعلماً لم يترك مسألة إلا تناولها ولا معضلة إلا حاول أن يجد لها حلاً. وقد برز اهتمامهم بالقضايا ذات الصلة بحاجات المجتمع، فلم يقصروا العلم على العلم لذاته، وإنما وظفوه أيضاً لنفع الناس حيثما كان إلى ذلك سبيل.

لقد علموا بالهدي المتجلي في الحديث الشريف "الحكمة ضالة المؤمن إينما وجدها التقطها"، فكان ظمؤها للمعرفة شديداً، ولا بد أنه كان يملأ صدور أعداد كبيرة منهم، فلا يعقل أن تقوم نهضة علمية كتلك التي شهدها العالم في ذلك العصر لو كان القائمون عليها قلة يعدون على الأصابع.

لم يكن المشتغلون بالعلم يبخلون به على غيرهم من محبي المعرفة، فكان لهم أتباع وتلاميذ، وكانوا يسهرون الليالي على ضوء الأسرجة ينسخون بالمداد والقصب ما تركوا لنا من مخطوطات، وما نقله عنهم الغرب حين رأى ذلك النور الوهَّاج في حواضر العالم الإسلامي

فأخذ بدوره يترجم ويقرأ. فالعرب كانوا رسل علم وصلوا الماضي بالحاضر وقدموا في ذلك للعالم خدمات جُلَّى.

وفي ظل التكنولوجيا البسيطة السائدة آنذاك أدخل العلماء التجريب إلى ميدان العلم وجعلوه دستورهم بعد أن كان العلم قبلهم فكراً محضاً يزدري التجريب ويعزف عنه لأنه يَعُدُّهُ من شأن العوام. فهذه السنة العلمية الجديدة نابعة من الحماس للعلم والمعرفة، واتِّباعها يوصل إليهما.

وهذا جابر بن حيان يوجه تلاميذه بالقول "وأول واجب أن تعمل وتجري التجارب لأن من لا يعمل ولا يجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلى المعرفة" كما ورد في كتاباته "ما افتخر العلماء بكثرة العقاقير ولكن بجودة التدبير، فعليك بالرفق والتأني وترك العجلة، واقتف أثر الطبيعة في كل ما تريده من كل شيء طبيعي".

وهذه مرتبة في الممارسة العلمية لا تزيد عنها الأفكار المعاصرة شيئاً. فالروح الوثابة الطامحة إلى المعرفة هي أول ما نقبسه من تراثنا العلمي، تلك الروح التي كانت تُهوِّنُ الصعاب والمشاق، وتدفع أصحابها إلى أن يقطعوا الفيافي والقفار، ويجعلوا موطنهم حيثما وجدوا كنزاً من المعرفة ينبشون عنه. فهذا الحسن بن الهيثم يولد في البصرة ويموت في مصر، فهو حيثما أنار له العلم الطريق، وليست النقلة من العراق إلى مصر في ذلك العهد بالهينة كما هي اليوم.

والأمر الأهم أنه لم تكن تقف في طريق ابن الهيثم وأمثاله عقبات الحدود والقيود والأهواء كما نلمس في أيامنا هذه. فمع أن عالمنا العربي يعج بالجامعات ولديه اتحاد للجامعات العربية إلا أن كل ما يطلقه هذا الاتحاد، أو العلماء المنضوون تحت رايات الجامعات، كل ما يطلقونه من شعارات عن

التعاون وتبادل المعرفة والخبرات كل ذلك لا يعدو أن يكون أخيلة وتمنيات. فالواحد من هؤلاء العلماء لا يملك أن يذهب إلى جامعة بلد مجاور إلا إذا فُحِصَ ومُحِّصَ في دورانه بين مختلف الدوار وعلى أبواب السفارات والقنصليات. وإلى أن تبرأ ساحته، وثبت نقاء سريرته يكون قد ودع ما شاقه من العلم ونوره، وقنع بغنم الإياب. في حماسها للعلم عن أهله أنفسهم. في هذه الدولة المترامية الأطراف كان الموقفان: موقف أهل العلم وموقف أهل الحكم، متلازمين، وكأنهما طرفا قضيب المغناطيس لا وجود لأحدهما دون الآخر. وليس هذا بدعاً وإنما هو مبدأ تؤكده طبيعة الأشياء حين تكون الأمور في مسارها الصحيح، وهو مبدأ أكده تاريخ العرب العلمي وأكده تاريخ العلم الحديث. فما من أمة بلغت في العلم شأواً يذكر دون التفاني من جانب أهل العلم، والدعم والتأييد من قبل أهل الحكم والمؤسسات التي تتولى شؤون العلم.

فهذا الوعي بأهمية العلم الذي ميز موقفي الطرفين، بارز واضح في كل جانب. ففي الوقت الذي كان فيه شارلمان –أعظم اباطرة الغرب في العصور الوسطى– لا يكاد يحسن توقيع اسمه، كان المجتمع العربي لا يطمئن إلا إلى حاكم وافر الحظ من العلم والأدب، سلواه مجالسة أهل الفكر والعلم والحديث إليهم.

أنظر إلى المأمون يعقد صلحاً مع ملك بيزنطية ويصرّ على أن يكون أحد شروطه الحصول على إحدى مكتبات القسطنطينية. وحين نفذ الشرط وجد أن في المكتبة كتاب بطليموس في الرياضة السماوية، وهو الكتاب الذي عرف بالمجسطي، وأمر المأمون بترجمته.

وهذا الخليفة المعتضد لم يسغ لنفسه أن يتكأ على كتف ثابت بن قره أثناء نزهة لهما، بل سحب يده بسرعة مما أثار عجب ثابت. لكن الخليفة يجيب استفساره بقوله "العلماء يَعلوُنَ ولا يُعْلوَن".

وهذه مكتبة دار الحكمة في بغداد، بلغ من اهتمام الخلفاء بها أن القيم عليها كان في رتبة الوزراء.

ويذكر أن عدد دور الكتب العامة في بغداد كان أكثر من مئة، كما أن مكتبة الخليفة الفاطمي العزيز بالله في القاهرة كانت تحتوي على أكثر من مليوني مجلد، كما أن مكتبة قرطبة كانت تضم حوالي نصف مليون مجلد.

وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلماء وخصوهم بعطفهم وشمولهم بالرعاية، كما فتحت المكتبات والجوامع ومنازل المعلمين للدارسين والراغبين في تحصيل العلم. وذكرت كتب التاريخ أنه في كثير من الفترات المزدهرة للحضارة العربية، كان لكل طالب علم مكان في المعهد الملائم لدراسته، ومعلم يرشده، ودعم مادي بعينه. وفي مثل هذه التربة الصالحة والمناخ الملائم لا غرو في أن يبرز من برز من علماء العرب.

وحتى لا يقول قائل إن الموقف الرسمي من العلم وأهله كان موقفاً فردياً لهذا الخليفة أو ذاك، أو مبادرة مؤقتة من حاكم أو وال في مصر من أمصار الدولة، فإن من الواجب أن نعود بهذا الموقف إلى الأساس الذي نبع منه، والمتمثل في سماحة الدين الإسلامي الذي لم يضع قيوداً على حرية التفكير والبحث العلمي، بل إنه أطلق العنان لعقول العلماء لتفكر في مخلوقات الله من أدناها إلى أعلاها وأسماها. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل امتد إلى التشجيع على طلب العلم، وإلى أن يَعُدَّ نور العلم أحسن ما يمتلك الإنسان من فضائل. ففي الآيات القرآنية: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون".

"ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً" والحكمة في معناها الأعم هي المعرفة. وفي الحديث الشريف.

"العلماء ورثة الأنبياء". و"من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طرقاً إلى الجنة".

ففي مثل هذه التوجيهات السامية لا غرابة في أن يكون أهل العلم جنوداً مخلصين في ميدانه، وأن يكون أهل الحكم قادة يعلون من شأنه.

ولا غرابة إذاً في أن العرب كانوا قادة الفكر والعلم يهتدي بهم السادرون في بحار الظلمات والجهل، ويتعلمون لغتهم ويهاجرون إلى حواضرهم طلباً للعلم.

وإذا كان ذلك الحال نتاجاً لموقفهم ذاك من العلم، وهذا ما أدعيه، فإن حالاً مثله سيكون في المستقبل بمشيئة الله. ما دام هذا هو هدفنا، فيجب أن لا نغفل عن أن هناك من لا يريدون لنا أن نصل إلى ذلك. في عصر مثل العصر الحاضر حيث أصبحت وسائل الاتصال والإعلام على تفشيها الذي نعرفه، وعلى سعة باعها في الوصول إلى كل بيت، نرى الغرب ما زال مصراً على ما اعتاده من إنكار دور العرب معتمداً على ما آلت إليه حالهم اليوم، فهو يستغل وسائل الإعلام تلك إلى أبعد الحدود في نشر دعواه الباطلة.

تصورا برنامجاً تليفزيونياً يؤرخ للحضارة بدءً من قديم اليونان إلى حاضر اليوم، وحين يمر بالحضارة الإسلامية كلها يعطي لها صفة الفتح والاجتياح، ولا يعرج على المكانة العلمية والفكرية والحضارية التي بلغتها إلا من قبيل ستر غرضه ذاك بقليل من الطلاء. ونطَّلعُ على وصف من أعدوه وكيف قاموا بذلك، فنجده مستنداً إلى مرجع تاريخي راسخ ربما لا تخلو منه مكتبة من مكتباتنا الكبيرة.

ولكن الطاقة الكبرى تكمن في أننا نأخذ مثل هذا البرنامج ونضع له ترجمة عربية وربما سيذاع في كل الأقطار العربية. مثل هذه الآراء التي تنشر في ظهرانينا عن تراث العرب العلمي والحضاري من قبيل ما يجب أن نحذر منه من مثبطات وعقبات في الطريق. وأعرِّج على ما مر ذكره من آمثلة توضح استخدام العلم لما ينفع الناس، وأن هذا كان دستوراً لأهل العلم ما ورثوه من حضارة سالفة، ولكن تعلموه من مبادئ الدين التي توجه المؤمن في قيامه بالعمل. ذلك أن العمل، أي عمل، هو في رأي الدين ضرب من العبادة.

ونلقي النظر على العلم الحديث، وهو كما ذكرنا من السعة والانتشار بحيث أضحى ذا خطر كبير في الحياة المعاصرة، ونتوقف قليلاً عند حاله من مسالة الخير والشر، فنجد أن حال العلم المعاصر يكاد يترجم قول أبي الطيب:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء للقناة سنانا

وقد نلوم العلم وأهل العلم لما خلفه العلم والتكنولوجيا من آثار جانبية مثل الإضرار بالبيئة بما أثقلت به من تلوث، ومثل استنزاف الموارد الطبيعية من تربة زراعية تنقلص رقتها بالتصحر، وغابات تقطع منها بلايين الأشجار سنوياً، ومثل مخزونات الوقود والمعادن التي أوشكت على النفاد. ومع أن هذا الآثار قد كانت في أغلب الأحيان مما لا يسهل التنبؤ بحدوثة، إلا أن مسؤولية العلماء فيها ليست رئيسية، فحين قدّم العلماء اكتشافاتهم تقلص دورهم ليتولي دفة الأمور المخططون الاقتصاديون وأهل السياسة، ليجري العالم معهم على درب مفعم بالنهم والشراهة لتملك المنافع المادية الدنيوية دون اعتبار للعناية بما استُخلف الإنسان فيه من أرض وشجر وثروات معدنية وغيرها. وحتى صيحات بعض العلماء المنبهة والمحذرة لم تفلح في الحد من هذا الاتجاه الخطر، وما كانت تلقى أذناً صاغية، اللهم إلا في العقود الأخيرة من عصرنا الحالي.

لكن ما يلام فيه بعض العلماء هو أنهم يجعلون من أنفسهم أدوات تسخر ما اكتشفوه للأغراض الشريرة، فيحولون ما قد يكون مصدر خير للإنسان في معاشه إلى سلاح يفتك به، يتفجر به وبأبنائه في بقاع لا تتصل بأرض المعركة، أو إلى غاز يسمم الهواء الذي يتنفسه أو يبيد ما حوله من شجر وعرق أخضر، أو ينشر الأمراض والأوبئة في المحيط الذي يعيش فيه.

وقد يقول قائل إن العلماء مجبرون على هذا السلوك لأن من بيده الحل العقد يستطيع أن يحرمهم جو البحث العلمي الذي يودون العيش فيه، وأن يمنع أيديهم من الوصول إلى المال اللازم للإنفاق على الأبحاث، بل ويستطيع أن يكدر عيشهم إذا لم ينضووا تحت جناح الوجهة السياسية التي يريدها. ومن الواجب أن يقال إنه على الرغم من هذا، لا يخلو تاريخ العلم الحديث من علماء لم ترهبهم قسوة الاضطهاد إلى حد أن تمنعهم من قول الحق، أو من الوقوف في وجه الباطل. وفي تاريخ العلماء العرب صفحات ناصعة تنطق بصلابة الوجدان في مقاومة نوازع الشر إن حاك في نفس حاكم. فهذا العبادي الطبيب يرفض أن يصنع سماً يستعين به الخليفة في قتل عدو له. وحين لامه البعض في التسبب بما نزل به من اضطهاد وحبس قال إنه ينطلق من عقيدته ومن مكارم الأخلاق أولاً، ومن إجلاله لالتزام العالم نحو مهنته ثانياً.

أما والعقيدة الإسلامية تظلل سيرنا في دروب العلم الحديث، وتضبط سلوك العالم وسلوك الحاكم، وتوجههما إلى الخير والمنفعة، وتنأى بهما عن مسالك الشر والإفساد، فإن مسار العلم سيكون بإذن الله مساراً مباركاً يعم به الخير والنفع. لكن إذا دعت الأحوال إلى أن يقدم العلم خبرته في صنع سلاح يقاوم عدواناً، فإن من صميم العقيدة أيضاً أن يكون العلماء مجاهدين بذلك في صفوف الأمة في منافحة العدوان.

إن توجه العلم نحو الخير ونحو مصلحة المجموع ظاهرة جلية واضحة في التراث العربي الإسلامي، وهو ما أضيفه إلى ما ذكرت من تفرد النظرة العامة للعلم كما تجلت في التراث العربي العلمي.

ومثلما يبدأ العداؤون السباق بارتكاز القدم إلى قاعدة ثابتة وينطلقون بقفزة إلى الأمام، سلاحهم قوة عضلاتهم للركض نحو الهدف، فإننا نريد أن ننطلق بقدم ثابتة مرتكزة إلى التراث، وبنفوس تستوحي ما ذكرنا من موقف مميز تجاه العلوم، على أن نستعين بما حبا الله به العرب من خيرات تمكنهم من قبس وسائل العلم الحديث وطرائقه، لنصل إلى علم ينهض بنا ويعلي من شأننا بين الأمم.

على أن هناك جانباً للعمل الحديث لا بد أن نجلوه كي نتبين كيف نعطي عوامل النجاح لتلك الأنطلاقة المرجوة المستندة إلى التراث. فالعلم الحديث ذو فوائد جمَّة، لكنه أيضاً ذو نفقات جمة، ولا قِبَلَ بإدارة دولابه إلا للأمم ذات الشأن في عالم الاقتصاد والثروات، بل إنه مرتبط بالاقتصاد والدخل القومي ارتباطاً عضوياً. فنحن لا نراه ناجحاً سوى في المراكز الاقتصادية الكبيرة مثل أمريكا الشمالية والاتحاد السوفياتي والسوق الأوروبية واليابان. ويمكن القول أنه لو بقيت أوروبا دولاً لا رابطة بينها لتضاءل قوة الاندفاع ؛ فإن ما هو مفروض على العالم العربي هو أن يتجاوز الشرذمة السياسية السائدة فيه وأن لا يجعلها تمتد إلى دنيا العلم.

تعقيب حول التراث العلمي العربي

لرئيس المجمع الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة

"بسم الله الرحمن الرحيم"

ندوة دور التراث العلمي في نهضتنا الحديثة

كلمة الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة

"رئيس المجمع"

أيها السادة العلماء، سيدات وسادتي

هذه ندوة حول دور التراث العلمي العربي في نهضتنا الحديثة، وكان المقرر أن يشارك معنا زميل كريم هو الأستاذ الدكتور عبداللطيف البدرى، عميد كلية الطب في الجامعة الأردنية سابقاً، ولكن المرض أقعده عن المشاركة في هذه الندوة، فنتمنى له الشفاء.

لقد استمعنا إلى الزميل الدكتور عبدالمجيد نصير، أستاذ الرياضيات في جامعة اليرموك. وقد عرض علينا جوانب مهمّة من موضوع هذه الندوة، وكذلك استمعنا إلى الزميل الأستاذ عادل جرار، أستاذ الكيمياء في الجامعة الأردنية، وقد تناول جوانب أساسية من هذا الموضوع.

وربما كان من المفيد، لاستكمال إطار هذا الموضوع المهم، وقبل أن نطرحه للمناقشة والتعليق أو التعقيب، أن نحاول الإجابة على تساؤلات طرحها الكثيرون، وتتركز حول: لماذا الاهتمام بالتراث العلمي العربي، الذي إذا ما قيس بما وصل إليه العلم الحديث، لا يعتبر شيئاً؟ وبالتالي، فلماذا يجب بذل الجهود المضنية في تحقيقه ونشره؟

لا شك أن التراث العلمي العربي يشكل جزءاً من حضارة أمتنا وتاريخها الفكري، وهو في الوقت ذاته يمثل تجربة باهرة لقدرة اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، على استيعاب حصيلة ما وصلت إليه المعرفة الإنسانية في شتى المجالات. فبرهنت لغة الضاد على هويتها وقدرتها، فكانت اللغة الأولى في العلوم والفنون والأداب في العالم أجمع لعدة قرون قبل أن تظلم عليها الدنيا، وتتكالب على أمتنا الأحداث والنكبات...

إن التراث العلمي العربي الضخم الذي ساهم به الأجداد، ليشكل رافداً مهماً من روافد الحضارة الإنسانية، فلم تكن الحضارة الإنسانية في يوم من الأيام ملكاً لأمة من الأمم، ولكن تقاس أهمية الأمم والشعوب بمدى مشاركتها في هذه الحضارة العالمية، وما تضيفه من معارف جديدة. ومن هذا المنطلق، فتراثنا العلمي يشكل حافزاً مهماً على التقدم والنهوض، كي تستأنف أمتنا دورها في بناء الحضارة العالمية.

وإن تعميق الثقة بالنفس وتنمية مشاعر الاعتزاز بتاريخ أمتنا ولغتها وثقافتها، تعتبر عناصر مهمّة من أجل نهضة علمية وفكرية وسياسية شاملة، تلحق بركب الأمم المتقدمّة، وتشارك مشاركة أصيلة ومبدعة في تقدم المعرفة، ولا سيّما أن العالم يشهد في أواخر القرن العشرين بوادر ثورة علمية هائلة، توحي بأن فجراً لحضارة جديدة بدأ يلوح في الأفق.

وانني لأستميحكم العذر إذا قلت أنه بدون تنمية الشعور بهذا الاعتزاز لا نستطيع أن ننهض، لا سيّما وأمتنا تواجه، منذ عدة قرون، حملة عدائية غاشمة، وتنكّراً لتراثنا بصورة عامة، وللتراث العلمي العربي بخاصة ... ولهذا التنكر أسباب كثيرة. وربما كان من أهمها: جهل الأمم الأخرى بهذا التراث العلمي العربي، وأن العلم به في الأوساط العلمية في حالة من النقص شديدة.

هذا مع العلم أن المترجمين الذين نقلوا هذا التراث العلمي إلى أوروبا لم يكونوا على الغالب أمناء، فقد نسبوا لأنفسهم في كثير من الأحيان ما توصل إليه التراث العلمي العربي من إبداع.

ولو أضفنا إلى هذا كله تلك السياسة العدائية التي رسمت منذ الحروب الصليبية، ومن خلال عصور الاستعمار، إلى الهجمة الصهيونية الاستعمارية في الوقت الحاضر، من أجل إخفاء الوجه المشرق للحضارة العربية الإسلامية وتشويهه، وإنكار ما كان للتراث العلمي العربي من دور مشرق وأساسي في النهضة الأوروبية الحديثة. وإن النتائج ليحدثنا عن أمثلة كثيرة، ولا سيّما في زمن التعصب الذي ساد أوروبا لعدة قرون.

فإذا أشرنا إلى بعض هذه العوامل الخارجية التي أدت إلى التنكر للتراث العلمي العربي، فلا بد لنا من الإشارة إلى ما يقابله أيضاً، مع الأسف، من تنكر عربي، وقد رأينا في الماضي والحاضر، حملات ظالمة وبأصوات عربية تحاول النيل من دور هذا التراث والتقليل من شأنها. فبعض هذه الحملات ينبع من جهل، وكثير منها موجه للنيل من مقومات وجود أمتنا متمثلة بتراثها ولغتها. فلا تكفّ هذه الأصوات الحاقدة عن استغلال ما تمر به أمتنا من ظروف قاسية، في الهزائم الخارجية والمنازعات الداخلية، وما تثيره من تمزق الأمة وترديها، فتشن حملاتها المسمومة على تاريخ الأمة وتراثها ولغتها، محاولة الصاق التهم بها. وأن الحملات المسعورة التي تلت هزمية الخامس من حزيران/١٩٦٧م، والأصوات الحاقدة التي حاولت أن تلصق باللغة العربية وبتراث الأمة أسباب تلك الهزيمة المذلة، ليست بعيدة عن ذاكرتنا ... هذا دون أن نتحدث عما نحن فيه في الوقت الحاضر من تشتت وتمزق وتردٍ. ولا تعدم

هذه الحملات وجود أصداء لها في نفوس فئة غير قليلة من شبابنا وفتياتنا، باتت إزاء هذا الوضع المتردي للأمة تنفر من كل تفاخر بالأمجاد الماضية.

إيها السادة، أن تنمية الشعور بالاعتزاز بلغة هذه الأمة وبتراثها، ودعم ثقة الأمة بذاتها وبهويتها الحضارية، ليس تفاخراً أجوف كما يحاول أن يصوره بعض الجهات من المغرضين والحاقدين، ولكنه شرط أساسي لاستعادة الأمة ثقتها بنفسها، والتعالي على جميع عوامل التمزق والتأخر ..

ونحن إذا وقفنا عند هذا العامل الأساسي، لا ننسى أن هنالك عوامل أخرى كثيرة، فمنها مثلاً أن كثيراً من أبناء جلدتنا ومن مثقفينا قد افتتنوا بما وصلت إليه الحضارة والعلوم الحديثة، وأن رؤية هذه الهوّة التي تفصل بين أمتنا وبين ما وصلت إليه التقنيات الحديثة، تثير لديهم التنكر والاستخفاف بأهمية التراث العلمي العربي، دون أن يكون لهم إلمام بهذا التراث، أو أن إلمامهم لا يتعدى فكرة عامّة عنه.

ونضيف إلى ذلك كله أن ما نشر من هذا التراث العلمي، لم يكن موضوعاً لدراسات علمية، تضع هذا التراث في موقعه الصحيح من تاريخ الفكر الإنساني.

ومن ناحية أخرى فإن تحقيق التراث العلمي العربي ونشره يشكل مصدراً مهماً لإغناء لغتنا العربية في الوقت الحاضر، من خلال المجاز والقياس والاشتقاق والنقل والنحت، للتعبير عن كثير من المعاني والمصطلحات العلمية الحديثة، إلى جانب التعريب بمعناه الاصطلاحي اللغوي. فقد كانت اللغة العربية لغة العلم والفكر في العالم، ولعدّة قرون. وإن أسباب الحياة المستمرة كامنة في جوهر هذه اللغة، تمدها بالحياة وبالقدرة على استيعاب كل ما يجدّ

في مجال العلم والفكر والتقنيات الحديثة، لا سيّما وأن عالم اليوم يشهد ثورة علمية عارمة، تتطور فيها العلوم بصورة متسارعة.

وفي الوقت ذاته، نحن لا ننظر إلى تراثنا العلمي من حيث قيمته العلمية في موازين ما وصل إليه العلم الحديث والمعرفة الإنسانية، ولكن يجب أن ننظر إليه من حيث موقعه في تاريخ العلم والحضارة الإنسانية.

ومن هنا نقول إننا لا ننظر إلى التراث العلمي العربي من حيث قيمته العلمية ولكن ننظر إليه أيضاً من حيث أهميته في تأصيل العلوم الحديثة في نهضتنا الحضارة في البحث عن جذورها، كما فعل الزملاء الذين شاركوا في هذا الموسم الثقافي في محاضراتهم في الفلك وفي الرياضيات وفي الكيمياء وفي شتى العلوم. وإن إحياء هذا التراث ونشره وجعله سهل التداول بين أيدي الباحثين والدارسين، شرط ضروري من أجل الإبداع والمشاركة الأصلية في بناء الحضارة الحديثة .

وأخيراً أود أن أشير إلى وجود كثير من الخصائص العلمية والخصائص المنهجية التي ما يزال العلم الحديث يعترف بقيمتها، وتشكل بعض مسلماته. ومن ذلك ما يخصّ طبيعة التفكير العلمي الذي مهّد لقيام الحضارة الأوروبية الحديثة. وربما كان من المفيد مثلاً أن نشير إلى مبدأ الشك الذي عرف به ديكارت في الفكر الأوروبي. وقد لا يتسع المجال لمناقشة هذا الموضوع في هذه الندوة، ولكنني سأكتفي بأن أشير إلى إبراهيم النظّام، شيخ المعتزلة، وقد توفي في أوائل القرن الثالث الهجري حيث يقول: "لم يكن يقين قطّ حتى صار فيه، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد حتى يكون بينها شك". ولم يقتصر الأمر على المعتزلة، بل نجدها أيضاً عند الغزالي، وهو صوفي أشعري، خاصم المعتزلة وحارب الفلاسفة.

إلى جانب ذلك من ركائز المنهج العلمي، نذكر دور الملاحظة العلمية والروح التجريبية التي سيطرت على مختلف الأبحاث العلمية في الطب والصيدلة والفلك والكيمياء ... الخ. ألا نرى أن "أخوان الصفا" في رسائلهم المشهورة، ولا سيّما في الرسالة الأولى عن العلوم الطبيعية قد أولوا موضوع تجربة المعاني المشتركة عن طريق الاستقراء التجريبي اهتماماً خاصاً .. فقد بنوا منهجهم على ملاحظة طائفة من الظواهر الطبيعية لمعرفة خصائصها المشتركة، ثم بعدئذ تعميم الحكم على أمثالها وإن لم تتناولها الملاحظة...

وان هذا المنهج العلمي يتجلى عند عدد كبير من علماء التراث، وتخص منهم في الطب ابن سينا، وابن زهر، وا بن النفيس، وابن البيطار، الرازي، دون أن نذكر البيروني الذي كان من أئمة رواد البحث التجريبي.

وربما كان من المفيد أن نشير أيضاً في مسرد حديثنا لما قدمه التراث العلمي العربي في مجال المنهج العلمي، الذي ما تزال خصائصه شاهدة على الحاضر، وهو النزوع إلى الكم والقياس، وبعبارة أخرى تحويل الكيفيات إلى كميات عددية، وخصوصاً في علم الفلك والجغرافية والطبيعة. وقد نضيف إلى ذلك كله تأكيد هؤلاء العلماء المستمر على الموضوعية والنزاهة في البحث...

وأخيراً أيها السادة، يطيب لي أن أختم حديثي بنص أورده الجاحظ في مقدمة كتابه الحيوان، حيث يقول:"جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبّب إليك التثبّت، وزيّن في عينك الانصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذلّ اليأس، وعرفّك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القلّة".

وأعتقد أنكم أيها السادة العلماء تشاركوني الرأي بأن ما اشتملت عليه هذه النصوص ما زالت تكوّن سمات أساسية من سمات المنهج العلمي الحديث.

والآن بعد أن عرضت علينا جوانب مختلفة من دور التراث العلمي العربي في حاضرنا، فالمجال مفتوح أمام الأخوة المستمعين للمشاركة في التعليق والتعقيب. ويسرّني أنا وزملائي الإجابة عن كلّ سؤال.

الدكتور عبدالكريم خليفة

رئيس المجمع